(١٦) عقول جهنمية .

دقت الساعة القديمة ذات البندول الضخم القابعة داخل مكتب الابن دقاتها الرصينة لتعلن عن الثانية بعد منتصف الليل عندما مط الابن شفتيه وهو يجلس خلف مكتبه يراجع كومة من التقارير قائلا فى غضب لقائد الامن الواقف أمامه :

- كل هذه التقارير تثبت فشل الحكومة فى السيطرة على الوضع ..(ثم اشار الى القائد مستطرداً) أنت ايضاً أثبت فشلك أكثر من مرة وفى ساعات قليلة ..

نظر قائد الامن اليه فى صمت والابن يتابع فى خشونة صارمة :

- انقطاع الكهرباء ووفاة الرئيس وهروب وزير الدفاع .. كل هذا يعنى أن هناك خلل أمنى خطير فى منظومة القصر .. خلل تستحق أن تحاكم عليها وتبقى خلف قضبان السجن بقية حياتك الفاشلة ..

رمقه قائد الامن بنظرة خاصة قوية صارمة جعلت الابن ينتفض من مكانه ويندفع اليه ويمسك بتلابيب بذلته وهو ينظر الى عينيه مباشرة صائحا بصوت هادر:

- كيف تجرؤ على النظر إليّ هكذا ؟؟

بدا قائد الأمن متماسكا متجاهلا ما قاله الابن قائلا فى برود لا يتناسب مع الموقف أبداً :

- هل تعلم لماذا اختارني الرئيس رحمه الله لأكون قائد الأمن فى القصر؟؟

تركه الابن وابتعد عنه وهو يقول بسخرية لاذعة :

- ربما لأنك أذكى وأمهر رجل أمن فى التاريخ القديم والحديث ..

رد القائد فى سخرية مشابهه :

- أشكرك على الجزء الاول من العبارة وسأتجاهل الجزء الثاني منها ..

ثم انقلبت ملامحه فجأة وهو يستطرد بلهجة قوية :

- لقد اختارني لأنني محترف بحق ..

ضحك الابن ساخرا وعقد ساعديه امامه وهو يقول فى تهكم :

-وما تفسيرك لما حدث اليوم أيها المحترف ؟؟

صمت القائد لحظات وخطى بعض الخطوات مبتعدا عن الابن الذى كان يرمقه بنظرات قاسية ثم تجمد مكانه فجأة هاتفاً فى حزم :

- لماذا قتلت الرئيس ؟؟

اتسعت عينا الابن فى ذهول شديدة وظهر الارتباك على ملامحه للحظة واحدة ثم تماسك بسرعة شديدة وهو يقول بصوت حاول أن يكون صارماً ولكنه خرج خافتاً متوتراً:

- ماذا تقصد؟ (ثم صاح فجأة) أنت فاشل .. مجرد فاشل يحاول تبرير اهماله وتعليق أخطائه على شماعة الأخرين .

لوح القائد بسبابته قائلاً فى غلظة :

- وأنت تحاول إلصاق جرائمك لي بعدما هرب وزير الدفاع الذى كان من المفترض أن يكون فى موضعي الأن .. أليس كذلك ..

عاد الابن صامتاً الى مكانه خلف المكتب وجلس وعلى وجهه ابتسامة صغيرة باردة وعينيه على القائد الذى استطرد قائلاً ولغة التحدى تملئ كلماته :

- كان الرئيس يعلم تماما أن الشر تملك روحك وعقلك وحولك الى شيطان تعيث فى القصر والوطن فساداً .. لقد حاول أكثر من مرة افساد مخططاتك تجاه الاخرين بصورة غير مباشرة وبدون أن تعلم ..لم يستطع أن

يواجهك مباشرة لأنه يدرك بأنك لن تتردد أبداً فى قتله والتخلص منه مثلما فعلت مع كثيرين طوال السنوات الماضية .. (ثم تحرك فى أرجاء الغرفة ذهاباً وايابأ مستطرداً) وقبل مرض الرئيس أمرني بتركيب كاميرات سرية لاسلكية على أعلى درجة من التكنولوجيا الرقمية فى مجال المراقبة وهى من النوعية التى تقاوم أى تشويش متعمد كذلك تنقل الرؤية الليلية بصورة فائقة الجودة .. وقد قمنا بتركيبها أثناء سفرك الاخير الى الولايات المتحدة الأمريكية وبقى الأمر سراً بينى وبين الرئيس و....

وفجأة أخرج الابن مسدس فضي ذو ماسورة طويلة تدل على أنه كاتم للصوت ووجه فوهته الى القائد قائلاً فى لهجة ساخرة لاذعة :

- هل تعني أن كاميراتك تسجل الأن اللحظات الأخيرة من حياتك ؟

ضحك القائد قائلاً فى تهكم :

- بل تسجل بداية مرحلة جديدة من حياتي..

فقال الابن :

- وماذا لو تجاهلت كل هذا وضغطت على الزناد ..

رد القائد بسرعة :

- بعد مقتلي بنصف ساعة على الأكثر ستجد مقاطع من الفيديو تخصك مرفوعة على الموقع الالكتروني الشهير اليوتيوب بالاضافة الى أن القنوات الخاصة المحلية والعالمية سيقوم أتباعي بتسليمهم اسطوانات السى دى المليئة بفضائحك وجرائمك .. وبدلاً من أن تقضي بقية عمرك وأنت سيد هذا الوطن كما خططت أنت لذلك .. ستكون فى حالة دفاع دائم عن نفسك أمام الرأى العام المحلي والعربي والعالمي .. وربما تحاكم ..

قاطعه الابن فى صرامة :

- إذن هي عملية ابتزاز حقيرة ..

فقال القائد ساخراً :

- منكم نتعلم يا سيدي .. (ثم اكتسب صوته الجدية وهو يستطرد) مشكلتك الأولى هى تصورك بأنك الشيطان الوحيد فى هذا العالم ..

سأله الأبن :

- وهل تعتقد وبناءً على كل هذا الهراء الذى ذكرته بأنك أصبحت شيطان؟؟

رد القائد قائلاً :

- للأسف .. الشياطين هم الفائزون فى هذا الزمن العجيب الذى نعيشه..

صمت الابن لحظة وتبادل مع القائد نظرات نارية مليئة بالتحدى ثم سأله :

- وماذا تريد أيها الفائز.. رئاسة الوزراء مثلاً ؟؟

هز القائد رأسه وهو يقول :

. لا .... لا .. لا أريد أى منصب سياسي .. بل أخطط لأكون رجل اعمال كبير.. وكل ما اطلبه هو ان أكون المسيطر على سوق اليورانيوم المستخرج من الجبل الشرقي..

قطب الابن حاجبيه وهو يردد :

- اليورانيوم ..

فهتف القائد :

- نعم .. كنز الكنوز فى هذا الوطن والذى تتهافت عليه دول العالم المتقدم..

تنهد الابن وقال وهو يخفض مسدسه :

- لك هذا ..

فإبتسم القائد وهو ينحني الى الامام قائلاً بلهجة مسرحية ساخرة :

- أشكرك جزيلاً على كرمك وعطفك يا سيدي ..

ثم هم لمغادرة مكتب الابن الذى أوقفه هاتفاً :

- أيها القائد .. (التفت القائد برأسه الى الابن الذى اضاف فى صرامة وقسوة) الفوز فى جولة لا يعني الانتصار فى المعركة .. ونصيحة مني .. كن حذراً جيداً لأنني سأبحث ورائك وسأدمر ما لديك وبعدها ستكون رصاصتي داخل قلبك .. ووقتها سأكون المنتصر..

فأشار القائد بيده وهو يقول :

- وتلك مشكلتك الثانية ؟؟ .. وهى العناد .. عنادك الذي يضم الغرور والكبر واحتقار الأخرين والرغبة فى السيطرة على كل شئ بحجة أنك الأعلم والأقوى والأقدر والأخرين أغبياء قصار النظر لا يفهمون شيئاً وأنت الوحيد الذى تفهم .. وعموماً .. ستكون نصيحتك أمام عيني دوماً .. وسأحرص كل الحرص على أن أكون أنا المنتصر دائماً والذى يسبقك بخطوة فى كل الجولات القادمة..

ثم ادار ظهره واتجه الى باب المكتب ليخرج منه إلا ان الأبن اوقفه للمرة الثانية صائحاً :

- الشيطان لا ينام أبداً .. أيها القائد ..

فإبتسم القائد وهو يرد عليه دون ان يلتفت :

- وكذلك لا يموت أبداً .. أيها الابن القاتل ..

واغلق باب المكتب بصورة باردة مستفزة تاركاً الابن وقد ضرب سطح مكتبه براحته فى حنق وغيظ .. إلا أن ملامحه تحولت الى ابتسامة غامضة مخيفة وهو يغمغم :

- حسناً .. تريد اللعب بأوراق مكشوفة .. كم أعشق ذلك ..

واتسعت ابتسامته أكثر وأكثر وعقله يعمل بسرعة خارقة لينسج خيوط خطة جديدة

وشيطانية كما اعتاد عقله الملئ بالشر..

كل الشر..

*****

وفى صباح اليوم التالي ظهرت الصحف وفوق صفحاتها الاولى تألقت العناوين الرئيسية بلونها الأحمر المميز وكالعادة فى دول كثيرة ابان ثورات شعوبها كانت الصحف الحكومية بارعة فى تزييف الحقائق وتضليل الرأى العام بينما الصحف الخاصة تحاول ابراز دور الشعب والمنظمات المجتمعية فى كفاحها من أجل التغيير واللحاق بالربيع العربي ووقائع مقاومة قمع الأجهزة الأمنية فى مختلف ارجاء البلاد والضحايا والشهداء الذين يتساقطون من اجل تحقيق شعار ثورتها كرامة .. حرية .. حياة انسانية ..

وفى مكان ما داخل البلاد ..

كان يجلس وزير الدفاع ومعه مسئول الأمن القومي الذي هتف وهو يمسك بيديه احدى الجرائد القومية الشهيرة :

- تصور انهم ينسبون ثورة الشعب الى المؤامرات الخارجية وأعداء الوطن..

فقال الوزير مضيفاً :

- رغم أنهم هم الاعداء لهذا الوطن .. هم الذين اصابهم جنون العظمة وتصوروا انهم فوق القانون والشعب .. تناسوا أن هناك القانون الإلهي والارادة الشعبية وأن لكل طاغي نهاية..

أومأ المسئول برأسه متفقاً واستطرد وهو ينظر الى الجريدة :

- لقد عزلونا أيضا من مناصبنا ..ويبحثون عنا ..

نظر الوزير فى الفراغ وهو يتمتم :

- أمر طبيعي .. (ثم استطرد متسائلاً) هل توجد أى إشارة عن وفاة الرئيس؟

هتف المسئول :

- الجرائد القومية تشير انه فى اجتماع دائم مع الحكومة لوضع حد للمتمردين .. اما الجرائد الخاصة فتؤكد من مصادرها ان الرئيس مريض جدا وأن الذى يدير الازمة الان هو ابنه ..

صمت الوزير لحظات وبدا انه غارقاً فى التفكير ثم التفت للمسئول متسائلاً:

- هل إتصل بك أحد ؟؟

رد المسئول :

- كثيرون .. مسئولون بالمخابرات وقادة الجيش وبعض السياسيين البارزين ورجال أعمال وغيرهم من المخلصين .. الجميع يريد المشاركة فى وضع خطة لدعم الثورة وعودة الوطن الى الشعب ..

هتف الوزير محذراً :

- احذر استعمال الهواتف .. فلابد انه يراقبها من خلال أنصاره ..

فقال المسئول :

- لا تقلق من ذلك .. فالعسكريون اتواصل معهم من خلال موجة راديو سرية ذات شفرة معقدة جداً .. اختراقها يحتاج الى سنوات .. أما الباقون عن طريق بريد الكتروني خاص جدا من الصعب التجسس عليه .. (ثم قطب حاجبيه وهو يضيف) وفى جميع الأحوال سأكون حذراً فى التعامل مع الجميع .. فالتابعون له كثيرون وفى كل مكان وهدفهم الوحيد هو قمع الثورة .. واذا نجحوا فى ذلك سيدفع الشعب ثمناً باهظاً .. وسيعودون هم بأشرس مما كانوا عليه ..

فهتف الوزير فى حزم :

- إننى اثق بهذا الشعب .. وقبل هذا ثقتي فى الله سبحانه وتعالى قوية وعميقة.. (ثم صمت لحظة سأله بعدها) أين الجنود ؟؟

اجاب المسئول وهو يشير بيده :

- فى الحجرة المجاورة ..

نهض الوزير واتجه الى حيث اشار المسئول وما أن خطا بداخل الغرفة حتى وقف الجنود الاربعة فى ثبات وقوة رافعين أيديهم بالتحية العسكرية رد عليها الوزير بالطريقة نفسها وأشار اليهم بالجلوس بعدها أخذ يتأمل ملامحهم الصارمة الجادة ثم تنهد قائلاً :

- أعلم ما يدور فى أعماقكم .. وأعلم أننا جميعا فى موقف يحسد عليه .. لقد تم عزلي .. وبالتأكيد هذا ما حدث لكم ..وأعتذر إن كنت تسببت فى تورطكم .. يمكنكم الرحيل اذا اردتم .. قولوا لقادتكم ووسائل الاعلام بأننى قمت بتهديدكم أو اختطافكم بطريقة ما وأنكم استطعتم الهرب مني .. أستطيع تحمل المسئولية وحدي .. ولكن لن استطيع تحمل بأنني المتسبب فى أذى جندي من جنودي ..

فقال جندي من الجنود الاربعة بلهجة قوية :

- سيدي .. نحن نقدر شعورك هذا .. ولكننا وقبل أن نكون جنود فإننا أبناء هذا الوطن عانينا جميعاً من الفساد والقمع والكبت بكل صوره .. لقد كنا نقف مكتوفي الأيدى أمام القبضة الأمنية الرهيبة التى كانت تعتصر شعبنا حتى أصبح المواطن لا يشعر بالكرامة وأن الوطن لم يعد وطنه ..لم يكن بيدنا أن نفعل شئ بعد أن فقدنا الحلم والأمل .. ولكن الأن .. وبعد أن أتخذ الشعب القرار وثار بكل إصرار على كل من طغي وتكبر .. كان لابد أن نفعل شيئاً .. ونأخذ القرار بأن ننضم الى الثورة والشعب بصرف النظر عن أى خسائر وظيفية فالمهم الأن أن يتحرر الوطن .. وأنت من أعطيتنا هذه الفرصة الذهبية .. لذلك نحن معك ..

فهتف الجنود الاربعة فى صوت واحد حماسي :

- كلنا معك..

ظهر التأثر الشديد على وجه الوزير وهم بقول شئ ما إلا أن المسئول قد ظهر فجأة وهو يهتف :

- سيادة الوزير.. هناك أمر هام ..

اتجه الوزير اليه بسرعة بعد ان تبادل التحية العسكرية مع جنوده وعادا الاثنان الى الحجرة الاولى وجلسا مكانهما والوزير يسأل فى لهفة :

- ماذا لديك ؟؟

أمسك المسئول بجهاز لاسلكي ضخم قائلا:

- مدير المخابرات يريد مكالمتك فى أمر خطير جداً ..

فخطف الوزير الجهاز منه وهو يضغط زر أعلاه هاتفاً :

- انا معك .. تكلم ..

لحظات واتسعت عيناه فى دهشة شديدة ..

وهوى قلبه بين ضلوعه ..

وتلاحقت انفاسه فى توتر ملحوظ ..

حتى أنه بذل مجهوداً جباراً وهو يحاول السيطرة على انفعالاته هاتفاً فى حزم شديد :

- حسناً .. إنني فى الموقع السري جـ .. هل تتذكره عندما كنا نتقابل هناك ابان عملي بالمخابرات... بالضبط ....أريد تقرير كامل مدعم بالصور ... سأكون فى إنتظارك ..

ثم انهى اتصاله فى الوقت الذى هتف فيه المسئول متسائلاً فى ذهول وهو يتأمل ملامح الوزير:

- ماذا حدث ؟؟ .. ملامحك تقول بأن أمر خطير قد حدث..

زفر الوزير فى ضيق شديد وهو يقول فى حنق وغيظ :

- هذا الوغد القاتل الشيطان إتخذ قراراً ونفذه على الفور .. قرار وصل به إلى قمة التآمر على الوطن والشعب ..

فهتف المسئول فى جزع :

- ماذا فعل ؟؟

انطلق الوزير يخبره بما جاء على لسان مدير المخابرات ..

واتسعت عينا المسئول..

فما سمعه يعني أن مرحلة جديدة من الصراع قد بدأت ..

مرحلة شرسة ..

دموية ..

ولا مجال فيها للرحمة ..

أبداً..

*****